بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة في المسجد النبوي بالمدينة النبوية

لفضيلة الشيخ : عبدالباري الثبيتي

بتاريخ : ١٨- ١٠-١٤٢٤هـ

والتي تحدث فيها فضيلته عن : حقيقة التديّن

الحمد لله، الحمد لله الذي أنقذنا بالدين، ورحمنا بهدي سيد المرسلين، أحمده سبحانه وأشكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله، قائد الغر المحجلين، والمبعوث بالهدى والنور المبين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبة وإخوانه أجمعين.

أمّا بعد:

فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، قال تعالى: ﴿يأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

من خصائص الإنسان أنّه بفطرته يميل إلى التديُّن، فالتديُّن فطرةٌ غرزَها الله في البَشر، وقد كانوا أوّل الأمر على التوحيد قبلَ أن تزيِّن لهم الشياطين عبادةَ الطّواغيت واتخاذَ الأصنام، فالدّين ضرورةٌ لحياة النّاس، والإسلام دينُ الله الحقّ الذي رضيَه الله دينًا لعباده أجمعين. عقيدتُه واضحة، بعيدةٌ عن إغراق الوهم وجموم الخيال وتحكُّم الأهواء، قال تعالى: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَلِكَ ٱلدّينُ ٱلْقَيّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

في الوقت الذي تتزايد فيه الانحرافات والجرائمُ والأمراض النفسيّة وتبرزُ مظاهر التطرّف والغلوّ تأتي النصوصُ الشرعيّة وتسندُها الدّراسات العلميّة والخبرات العمليّة لتؤكِّدَ أنّ الدينَ حصانةٌ للمجتمع والمتديّن أكثرُ سعادةً وأفضل صحّةً واستقرارًا في حياته.

إنَّ الفردَ حين يتديَّن ويتمسَّك بتعاليم دينِه يسمو فيثبُت ولا يتزعزَع طاعةً لله وطلبًا لمرضاته.

ومن أبرز أمثلة التديُّن سلوكُ سحرة فرعونَ بعد التزامهم بدين الله، لمّا آمنوا بموسى أُلقيَ السحرةُ ساجدين، فقال لهم فرعون: ﴿ءامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ قَالُواْ لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٤٩-٥١]. إنّهم لم يتركوا دينَهم الذي باشر قلوبَهم ورضُوا به، فاطمأنّت نفوسُهم إليه، وباعوا له الدنيا طمعًا في مغفرة الله وما عندَه وهو خيرٌ وأبقى.

وفي تاريخ أمّة محمّد ﷺ يظهر أثرُ التديُّن جليًّا في سلوك الأفراد، فقد فشا في المجتمع قبلَ الإسلام الخمرُ والميسر والظلمُ والنّهب والتناحُرُ والحروب، فلمّا جاء الدينُ طهَّر قلوبَهم وهذّب سلوكهم وضربوا أروعَ الأمثلة في تزكية النفس والإيثار والكرَم وصلة الرحم ودفعِ الظلم ونُصرة الضّعيف، حتّى إنّ أحدَهم ليقدّم

نفسَه للقتل جزاءَ ذنبٍ اقترفَه ولم يكن يعلَم به بشر، هذا هو أثر التديُّن بالدّين الحقّ.

إنّ أيَّ حضارةٍ من الحضارات لن تجدَ هويّتها بين الأمم إذا كانت بلا معتقدٍ دينيّ، والذي يقرأ تأريخ الأممِ السابقة التي كانت بلا عقيدةٍ اندثرت حضارتُها في مدّةٍ قصيرة ولم تستطع البقاءَ، وتحوّلت بفضلِ التـديُّن بدين الإسلام قبائلُ السّلب والنهب إلى دولةٍ ذات حضارة، يحكمها منهجٌ صالح لكلّ زمانٍ ومكـان، قـال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

دينُ الإسلام قدّم للمؤمنين سكينةَ النّفس وطمأنينةَ القلب، حجَب عن المجتمـع الانحـرافَ والاضـطراب والتمزّقَ والضيّاع، هيّأ السَّعادةَ والحضارة الزاكيَة الحقّة، كما تُسلَبُ الطمأنينة ويضعُف الأمن في انتزاع الإنسان نفسَه من الدّين، فالدّين شفاءُ الصّدر وترياقٌ لأمراض القلَق والحَيرة، قال رسـول الله ﷺ: ((ذاق طعمَ الإيمان من رضيَ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمّد رسولاً)) أخرجه مسلم.

ومهمَا زادَت مخترعاتُ الحضارةِ والمترفَات الصناعيّة فسيبقى النّاس في حاجةٍ إلى الدّين والتديّن، الناسُ فقراءُ إلى خالقهم وبارئهم، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر:١٤]، قال أحدُ السّلف: "ليس الدّين بمجرّد تَرك المحرَّمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، وأكثر المتـديِّنين لا يعبؤون منها إلاّ بما شاركهم فيها عمومُ النّاس، أمّا الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكـر والنّصـيحة لله ورسوله وعبادِه ونصرةُ الله ورسوله ودينه وكتابه فهذه الواجباتُ لا تخطر ببالهم، فضلاً عن أن يريـدوا فعلَها، وفضلاً عن أن يفعَلوا، وأقلّ الناس دينًا وأمقتُهم إلى الله من تَرك هذه الواجباتِ وإن زهد في الـدّنيا جميعِها، وقلّ أن ترَى منهم من يحمرّ وجهُه ويمعِّره لله ويغضَب لحرماته ويبذل النفيسَ في نصرةِ دينـه، وأصحابُ الكبائر أحسنُ حالاً عند الله من هؤلاء" انتهى كلامه رحمه الله.

إخوةَ الإسلام، التديُّن يعني الاستقامة والطهرَ والعفاف وغضَّ البصر والبعـدَ عـن الفجـور والخمـور والمخدِّرات وأذيّة المؤمنين باللّسان واليد. التديُّن يمنَح صاحبَه عاطفة جيّاشةً تجعله نبعَ خيرٍ يتدفّق لتنمية المجتمع وتقويةِ أواصره. التديُّن يقذِف في قلب صاحبه رقابةً ذاتيّة تجعله لبنةَ بنـاء، يحـرُس الفضـيلة، يحافظ على أمنِ المجتمع، يحميه من مجرمٍ رذيل أو فكرٍ دخيل. التديُّن له أثرٌ في السّلوك، يربّـي علـى الأوبَة الصادقة والإنابة العاجلة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

أزلّ الشيطانُ آدم، وزيّن له الأكلَ من الشجرة، فعاد إلى ربِّه وصدَق في عهده، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

إنّ المتديّنَ ليس معصومًا، فهو كغيرِه من البَشر، قد يزلّ، وقد يغفل، فإذا تذكّر تابَ وآب وأنـاب، قـال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

التديّن ــ عبادَ الله ــ ليس مجموعةَ قيودٍ وأغلال تقضي على حريّة الإنسان كما يصوّره من لا يفقَه حقيقةَ الإسلام، إنّما هو سموٌّ بالنّفس، طهارةٌ للقلب، مكارمِ أخلاق. إنّ التديُّن يجعل للحياةِ معنًى سـاميًا وهـدفًا عاليًا ونعيمًا لا يدانيه نعيمٌ إلاّ نعيم الجنّة.

لقد شُوِّهت حقيقةُ التديُّن بممارساتِ تُجّار الدّين الذين جعلوا الدينَ شعارًا للابتزاز والتكسُّب، وهذا أصابَ الدينَ في الصّميم وصرفَ عن الدّين الحقّ، قال رجل من المسلمين لعالمٍ من التّابعين: كيف رأيتَ أصحابِي؟ قال: "أرى صلاةً كثيرة وصيامًا، ولكنّي لا أرى عليهم نورَ الإسلام"، وسأل رجلٌ الفضيلَ بن عياض: لِم كان كلام السّلف الصالح أنفعَ من كلامنا؟ قال: "لأنّهم تكلَّموا لعزِّ الإسلام ونجاةِ النفوس ورضا الرحمن، ونحن نتكلّم لعزِّ النفوس وطلب الدنيا ورضا الخلق"، حتّى الكلام دخلت عليه الصّناعة، قال عليّ بن الفضيل بن عياض رحمه الله : يا أبتِ، ما أحلى كلامَ أصحابِ محمد ﷺ! قال: "يا بنيّ، أوَتَدري لِم حَلاَ؟" قال: لا يا أبت، قال: "لأنّهم أرادوا به اللهَ تبارك وتعالى".

يجِب أن تميّزَ الأمّة بين التديُّن الذي يمثِّل وسطيةَ الدين وبينَ المناهج والأفكار التي سلكت غيرَ سبيل المؤمنين كما تميّز بين الصّورة والحقيقة. هناك من يفهَم الدّين على أنّه مجرّدُ مظاهرَ وشكلياتٍ ومجموعة من الطّقوس، ويقيسون تديّنهم وتديُّنَ الآخرين بالحِفاظ على هذه الشّكليات، أمّا جوهرُ الدين وترجمته إلى سلوكٍ في الحياة فهذه أمورٌ لا تشغَل بالَ هؤلاء الذين جعلوا من الدّين جسدًا بلا روح ولفظًا بلا مضمون.

إنّ الدينَ الحقيقيّ لا يأبَه بالشّكليات، ولا يعوِّل على المظهريّة، قال ﷺ: ((إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)) أخرجه مسلم.

والتّقوى محلُّها الصّدر، وقد نظر عمر بن الخطاب إلى رجلٍ مُظهِرٍ للنّسك متماوتٍ، فضربه بدرّته قائلاً: (لا تُمِت علينا دينَنا). هذا التديُّن الصناعيّ الظاهريّ لا تنهضُ به حياةٌ ولا يرشُد به مجتَمَع.

لم تكن مهمّتُه ﷺ أن يلتوَ على النّاس كتابَه فحسب، فإنّ رسالتَه يستحيل أن تتمَّ بجملةٍ من الأحكامِ والعلوم يَشحن بها عقولَ السامعين، كما أنّ البشرَ لا يبلغون كمالَهم وفلاحَهم بالمعرفةِ المجرّدة، وإنّما بإقرار الفضائلِ وإطفاء الرّذائل وتربيةِ النفوس على الحقِّ والخير، وهذه تتطلّب جُهدًا ومجاهدةً وزمنًا.

شتّان ما بين تديُّن حقيقيٍّ وتديّن مظهريّ، قال ﷺ: ((إنّ الرجل ليعمل عملَ أهل الجنّة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإنّ الرجلَ ليعمل عملَ أهل النّار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنّة)) متفق عليه. هذا الحديث يصِف ضروبًا من النّاس، تُخالف ظواهرُ أحوالهم خفايا نفوسهم.

تلمحُ في أهلِ الدّنيا رجالاً تحسبُهم مغرقين في حبِّها، فإذا دقّقتَ النظرَ في طويّتهم سطعَت بحبِّ الله والشوق إلى لقائه، وقد تلمَح في أهل الدّين رجالاً عليهم سيما الصّالحين وإخباتُ المنيبين، فإذا رجعتَ الطّرفَ وجدتَ رغبةً في الحياة وحرصًا على زُخرفها. إنّ هؤلاء وأولئك تُناقض ظواهرهم بواطنَهم.

إخوةَ الإسلام، يجِب أن يُغرَس التديُّن على علمٍ صحيح وفهمٍ سليم من القرآن الكريم والسنّة النبويّة لنقضيَ على المفاهيم المغلوطَة عن التديّن، خاصةً من يزعم بلسانِ الحال أو المقال أنّ التديُّنَ عاملٌ رئيسيّ في بروز مظاهرِ الغلوّ والتطرّف. ألم يكن أنبياء الله ورسلُه في أعلى مقامات التديُّن؟! فهل نَسِمُهم بالتطرّف والغلوّ أو نجعلهم سببًا في نشوئه؟! حاشا، وكلا، ومعاذَ الله، كبُرت كلمةً تخرج من أفواههم.

هناك فئامٌ ضلّوا الطريقَ وخرجوا عن المنهَج الوسط، هؤلاء لا يمثِّلون الأمّة وليسوا حجّةً عليها، وعلى هذا فإنّ الاصطيادَ في الماء العكِر من بعض الأقلام وتعميمَ الأحكام على كلّ مؤمنٍ تقيٍّ منكَرٌ من القول

وزور. انتقاصُ العلماءِ وتشويهُ شخصيّة المتديِّن والغمز واللمز للهيئات الشرعيّة واللِّجان الدائمة ونسبةَ أيِّ سلوكٍ خاطئ إليها ينبئ عن خلَلٍ في الفكر وسوء الطويّة.

إنّ هذا العملَ الذي يسخَرُ من الإسلام ويشوّه أهلَه والممتثلين هديَه أنشأ أجيالاً تشكر غيرَ المسلمين وتحترمهم، وتهاجِم الإسلامَ وتحتقر أهلَه. الذين يربطون أيَّ سلوكٍ منحرفٍ بالتديّن يقلبون المفاهيم، ويزوِّرون الحقائق، ويضلّون الأمّةَ، ويرتكبون جرمًا في حقّ الإسلام وأهله. ونحن أمامَ جيلٍ جديدٍ يتطلّب الحالُ تقويةَ صلته بالدّين واعتزازه بالإسلام؛ لنضمنَ له قوةً وبقاء، وللمجتمع سلامًا وأمانًا.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢، ٨٣].

بارك الله لي ولكم في القرآنِ العظيم، ونفعني وإيّاكم بما فيه من الآياتِ والذكر الحكيم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية:

الحمدُ لله على إحسانه، والشّكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أنّ سيّدنا ونبيّنا محمّدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه.

أمّا بعد: فأوصيكم ونفسي بتقوَى الله.

إنّ الدينَ هو العلاج الناجعُ لمشكلاتِ الأمّة بجميع ضروبها، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّـٰكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

لقد دعا رسولُ الله ﷺ إلى الإسلامِ، دينًا قيمًا ملّةَ إبراهيمَ حنيفًا، وما دام هذا الصراطُ مستقيمًا فإنّه لا يضلّ سالكه ولا يُهدى تاركه، إذ ليس بعد الحق إلا الضلال، وليس أمامَ تاركِ النّور إلاّ الظّلمات، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلاَّ ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢].

إنّ أعظمَ مهمّة في هذا العصرِ تغذيةُ منابع التديُّن، وترسيخُ العقيدةِ والمنهَج الوسَط، فالشبابُ بلا عقيدةٍ لا تطيب لهم حياةٌ ولا تستقيم أمورُهم، بل يجتذبهم التيّار أينما سار، فهو مرّةً متشدِّدٌ، وتارةً متردِّد، وطورًا متبدِّد، قليلُ الخيرِ لنفسه ولمجتمعه، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢].

ألا وصلّوا ــ عبادَ الله ــ على رسول الهدى، فقد أمركم الله بذلك في كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهمّ صلِّ وسلّم على عبدِك ورسولك محمّد، وارضَ اللهمّ عن الخلفاء الأربعة الراشدين...